# المشهد الثانى

# الخطاب السياسى وحكمة الشعب

إذا قمنا بعمليه حصر وقصر لمجموعة الخطابات السياسية أو غير السياسية أو حتى فى مجال الندوات والمؤتمرات وافتتاح المشروعات، نلحظ بشكل واضح، لا يخالجنا فيه شك، أن الخطاب السياسى يكاد يكون واحدا فى عموده الفقرى. فهو يركز دائماً على حكمة هذا الشعب، وأن هذا الشعب ذو حكمة وعبقرية، وأن هذا الشعب عظيم الشأن وذو جذور تاريخية وحضارية عريقة، ويعلن الخطاب السياسى دائماً عن حكمة هذا الشعب، بل ويعلن الحاكم نفسه بأنه قد استمد قوته من حكمه هذا الشعب وعظمته، ولكن برغم ذلك يرى الحاكم نفسه الناطق بهذا الكلام، والذى يمدح بموجبه الشعب على حكمته وعظمته هو نفسه الذى يذيق هذا الشعب العريق الحكيم ألوان القهر والطغيان ومرارة العيش، من قمع وبطش بل واضطهاد وضيق الرزق وتدنى مستوى الخدمات المقدمة ثم أن هذا الخطاب السياسى الغير سوى هذا يعلن أيضا بكل جرأة عن مزايا دولة القانون, إن القانون لابد أن يسود الجميع ولا أحد فوق القانون، وأن ميزان العدالة تحمله امرأة معصوبة العينين دليلاً وبرهاناً على العدالة الناجزة التى لا تتبع الأهواء ولا تلتفت إلى الحسابات

الشخصية أو المحسوبيات، وبرغم كل هذا التأكيد على ضرورة وجود دولة القانون واحترامها، إلا أن الضمير الجمعى له رأى آخر يفعله وينفذه دون أن يعلنه، ففى إعلانه مشقة لا يستطيع أن يتحملها فالضمير الجمعى وقر فيه أن العدالة غابت لأسباب كثيرة من أبسطها وأيسرها أن روح القانون والتسامح والعفو للنخبة، بينما غلظة القانون وقسوة الإجراءات للعامة، بجانب ذلك يعلن الخطاب السياسى ذاته القسوة والتهديد والوعد والوعيد لمن يقف عائقا أمام سعادة ورفاهية الشعب أو يكدر صفو حياته، وأن القسوة والقوة الباطشة هدفها حماية الجموع الغفيرة من الشعب، ثم بعد ذلك تستخدم قوانين الطوارئ وغيرها من ممارسات تبدو دائما على أنها أعمال استثنائية لفترة محددة، ولكن سرعان ما تستمر، ويعيش الشعب كله تحت مظلة الطوارئ، حتى يتعايش معها ويقبل بنفسه طواعية توسيع دائرة الاشتباه وغيرها من أعمال الطوارئ.

## الخطاب السياسى وآفة اختراع العدو التقليدى.

إذا قمنا بعملية استقراء للخطابات السياسية على فترات زمنية متفاوتة، سواء متقاربة زمنيا أو متباعدة زمانيا، لانجد خطابا فى بلادنا إلا ويشير إلى عدو تقليدى يشير الخطاب دائما إليه، والمطلوب من الجماهير الوقوف بجانب قائدها لمحاربة هذا العدو الذى غالبا ما يكون عدوا وهميا لاوجود له، لكن وجود هذا العدو من لوازم الخطاب السياسى لبلادنا حتى تحارب الشعوب طواحين الهواء، ويستمر النظام السياسى بالنسبة لهم المنقذ والمخلص لهم من شرور هذا العدو وهمًا وافتراءً.

وفى إطار هذا السياق ذاته يعزف الخطاب السياسى على دغدغة مشاعر الناس وعواطفهم ليتحقق من وراء ذلك استقرار زائف، وانتصار واهم، وفى كل مرة يرحل فيها نظام سياسى يكون الشعب الوحيد المتحمل لكل فاتورة الانكسار والانحسار، بل

والفقر والجوع والفاقة، فلا حقق له النظام صاحب الخطاب السياسى الحكيم شيئا من ضروريات الحياة؛ فالمواطن ظل وبقى غير آمن على نفسه وعلى صحته ولا حتى مستقبله، فلا حاجة لنا إذن لخطاب سياسى يمدح حكمتنا ثم هو ذاته يهين كرامتنا، ويجعلنا نرتضى هذا الخطاب بهذا الشكل، ويكرس لاستمرار النمط الواحد فى الخطاب السياسى لبلادنا، رغم تغير الأنظمة السياسية المستخدمة لهذا الخطاب فتعدد الأنظمة وتعدد الأشخاص المسيطرين لهذا الخطاب لا يدل إلا على وجود نمط واحد من التفكير لا يرى فى الجماهير إلا مفعولا بها، وليست فاعلة، فلا يقيم وزناً لإرادة الجماهير هذه.

## الخطاب السياسى والزعامة الوهمية:

الأمر الآخر أن لهجة الخطاب السياسى فى بلادنا تكرس فكرة الزعيم الملهم الزعيم الخالد، فتكرار هذه اللهجة نتيجتها الحتمية أن الخطاب بهذا الشكل يصبح حالما فى مظهره عاجزا فى جوهره.

فالزعيم الخالد الملهم صاحب الخطاب لا يستطيع أن يصارح شعبه بعجزه التام الكامل إزاء قرارات

سياسية معينة نتيجة لعبه التوازنات الدولية ونتيجة ضغوط دولية وحسابات معينة .

ومن مقتضيات الزعامة الوهمية الخالدة هذه أن يباهى ويفاخر أنه صاحب تجربة وحيدة فريدة قد لا تتكرر، ويعتبر هذا مدحا ومزية، لكنه فى واقع الحال يجعل نفسه فريدًا، أى منقطع الأوصال بخطابات الماضى، ويعتبر نفسه مصادرا على الخطابات القادمة، إذ لا تقدم إلا بما جاء فى خطابه هو، وكل التخلف فى الخطابات السابقة، وهو يعلن أنه صاحب تجربة فريدة نفس الخطاب السياسى السابق، لكنها تجارب سابقة كانت يوماً ما تدعى مامدعيه اليوم .

## الخطاب السياسى ولعبة الأرقام التى لا تكذب:

اتخذ الخطاب السياسى فى بلادنا منحنى سرد الأرقام فيه بمناسبة وبدون مناسبة، سواء استدعى الأمر ذلك أم لم يستدع ذلك .

– استعمل الخطاب السياسى هذه الفرية كدليل على صدق الأرقام بداية من التسعات الكثيرة التى تأتى فى نتائج الانتخابات، واستفتاءات الثلاث التسعات ٩٩ر٩ الشهيرة والتى امتدت، أى الأرقام،

وتوغلت داخل الخطاب السياسى وتعطى دوراً هامًا فى متوسط دخل الفرد، وحجم الدين الداخلى والخارجى، أو نسبة التضخم والزيادة السكانية واستصلاح الأراضى، حتى بلغ كل مناحى الحياة، لكنها فى النهاية خرجت عن الإطار الذى كانت قد وضعت من أجله وله، حتى أصبحت الأرقام عبئا ثقيلا على الخطاب السياسى ذاته.

نخلص من ذلك غذن إلى أن الخطاب السياسى بكل هذه العيوب قد رسم لدى العامة من الناس مفاهيم خطيرة للغاية نجملها فى الآتى:

أولا : أدت هذه المفاهيم الخاطئة إلى جدلية الاحتكار والاحتقار، فالخطاب السياسى بهذه العيوب يحتكر السلطة لنفسه، ويفرض وصايته على الشعب، وعلى الطرف نفسه هو يحتقر الجماهير الغفيرة.

فالخطاب ما زال يحتكر كل شيء حتى معرفته بواطن الأمور عن الناس الذى هو يحتقرهم.

ثانيا: وينسى الخطاب السياسى أن يؤكد للجماهير أن هناك تباينا بينهم، ولكن هذا التباين والتفاوت بينهم، سواء فى المكانة الاجتماعية أو الثقافية،

هو على قاعدة واحدة، وهى قاعدة الوطنية، فالوزير والمسئول فى موقعه رغم تفاوته الطبقى والاجتماعى والثقافى إلا أنه لا يستطيع أن يدعى لنفسه قدراً زائدا من الوطنية عن غيره من المواطنين.

ثالثا: يباهى الخطاب بقوة الاقتصاد أو السعى إلى قوة الاقتصاد، ويعتبر هذا من نقاط القوة، وينسى ذات الخطاب أن يبين أن قوة الاقتصاد ليست غاية فى ذاتها، إنما هى وسيلة لغاية أكبر ربما تكون مثلا لغاية إسعاد الناس.

رابعا وفى النهاية، الخطاب السياسى بهذا الشكل يفقد الرؤية، ولا يستطيع بناء الثقة بينه وبين الناس، أو بين الناس بعضهم بعضا، ولابد أن يعلم صاحب القرار السياسى دائما أن الثقة ليست عطية أو هبة أو منة من النظام للناس، لكنها مناخ متاح للجميع.

وبعد أن استعرضنا بعض الجوانب القليلة غير السليمة فى الخطاب السياسى، وجب علينا أن نقر بأن استمرار هذا النمط من الخطابات السياسية لن ينطلى على الجماهير بعد ذلك، ولابد أن يعلم صانع القرار أن هذا العوار الواضح فى الخطاب السياسى

فى تلك الحقبة الزمنية لن يمر على أحد بعد ذلك، حتى مع دغدغة مشاعر الناس، فلا فائدة منه، فهو خطاب به قدر كبير من النفاق الموازى، النفاق المعاكس، فالخطاب ينافق الجماهير، وهى كذلك تنافقه على عكس ما ترى من الجميع.